ذكرها الى المجمع العلمي قال لاعضائه "اذا صحّ ان الدكتور فران اوجد طريقة لوقاية الانسان من شرّ الهواء الاصفر فهو في غنًى عن امضاء الوزارة لاحراز الجائزة اذ الانسانية باسرها تتكفل له باستحصال الفنى الادبي والمادي معًا"

وقد وقفت مؤخرًا على تقرير الدكتور ارمجن مندوب اللجيك فرأيت فيه وصف اعمال الدكتور فران بالتفصيل وربما لخصته في فرصة أخرى تكملة للفائدة وبالله التوفيق

المصريون القدماء

لجناب الدكتور يوحنا ورتبات

عضو المجمع العلمي الجراحي في ادنبرج وجمع الامراض الوافدة في لندن وطبيب مستشفى امراء مار يوحنا في بيروت

ان علمنا بتاريخ المصريين القدماء قد زاد كثيرًا على علم مَنْ تقدمنا لكثرة ما كشفه الباحثون في ايامنا من الغوامض التي خفيت على من تقدمنا كعلوم المصريين وصناعتهم وديانتهم وآدابهم وتاريخ تمدنهم الى غير ذلك مما صار مجموعهُ يُعَدُّ علمًا قائمًا برأسهِ وقد أُفردت لتدريسهِ مناصب خاصة في كثير من المدارس الكبرى في زماننا. وهو يسمّى عند الفرنسيين والانجليز ايجبتولوجيا وهي لفظة مركبة معناها "علم مصر" لان مدار البحث فيهِ على كل ما اختص بمصر والمصريين في قديم الزمان. ولا حرج في عدّ ذلك علمًا قائمًا برأسهِ فان قِدَم عهد المصريين وفخامة مبانيهم وعظمة هياكلهم وكثرة نقوشهم وكتاباتهم التي قاومت يد الدهر فنوبت عليها وحفظت لنا ما أُودع فيها من اخبار اهلها واحوالهم ومعاشهم وحكمتهم وديانتهم هذه وامثالها هي من اشهر الغرائب التي شاعت في هذا العصر واجدرها بان يبحث عنها ويُمعَن النظر فيها

وقبل ان نتعرّض لذكر شيء من ذلك نشير الى هيئة بلاد مصر وما اختصّت بهِ من الاوصاف. فالمتأمل في خريطتها يرى نهر النيل المعدود من اكبر انهار العالم يخترقها من الجنوب الى الشمال فيرويها ويغنيها عن الامطار التي قلّما تقع فيها ويتراك فيها كل سنة ما يحملهُ من الغثاء (الطمي) فيجيد تربتها ويسهل حراثتها حتى ان الفلاح يستغل منها بالتعب القليل اضعاف ما يستغلهُ غيرهُ من غيرها بالتعب الكثير. وبعد ما يخدمها بذلك كلهِ يصبُّ ما تبقّى منهُ

في البحر المتوسط . فارض مصر من النيل اصلها وبالنيل حياتها . ولم يجهل قدماء المصريين فضل النيل على بلادهم ولذلك بحثوا عنهُ كثيرًا ليعرفوا اصلهُ وسبب فيضانهِ صيفًا حال كون سائر الانهار تفيض شتاء فلم يتح عليهم بمعرفة هذين السرّين مع اتساع معارفهم وطول باعهم حتى ان هيرودوتس المؤرخ الشهير لما اتى بلادهم نحو ٤٥٠ سنة قبل المسيح افرغ الجهد في السؤال عن اصل النيل ومنشإهِ فلم يجد من يجيب طلبهُ وفي ذلك يقول "ولم اجد بين كل من سألت من المصريين والليبيين واليونانيين احدًا يعرف عن مصدر النيل اقلّ شيء ولو في الدعوى فقط" وبقي هذان السرّان مكتومين عن البشر حتى حلها جماعة من سيّاح الانكليز في هذه السنين الاخيرة وذلك انهم وجدوا في الاراضي الشاسعة في اواسط افريقية بحيرتين تستطرق احداهما الى الاخرى فسمّوا الواحدة ڤكتوريا نيَنزا والاخرى ألبرت نيَنزا وتحققوا انهُ يصب فيهما جداول كثيرة ولا سيما حينما تهطل الامطار الغزيرة صيفًا على ما جاورها من الاراضي فيرتفع ماؤهما وهذا سبب فيضان النيل اشهر الانهار التي تخرج منها . فكشفوا بذلك مصدر النيل واوضحوا سبب فيضانهِ صيفًا

ويبتدئ فيضان النيل في اواسط حزيران (جون) ويبلغ منتصف علوهِ في اواسط آب (اوغسطس) ونحو ذلك الوقت تفتح السدود فيجري النيل في الترع الكثيرة المحفورة داخل البلاد ولا يزال ماؤهُ يتعالى حتى يبلغ اعلاهُ في اواخر ايلول (سبتمبر) ثم يبقى على علو واحد نحو اسبوعين ويأخذ من ثم في الانخفاض حتى يبلغ اوطأهُ حوالي ٢٠ ايار (ماي) . والنيل يجري كلهُ معًا في البلاد الى ان يبلغ مكانًا معينًا من مسيرهِ نحو البحر فينشطر عندهُ الى شطرين احدهما يجري في ناحية من البلاد حتى يصب في البحر المتوسط عند دمياط والآخر في ناحية أخرى حتى يصب في البحر عند رشيد . وكان ينشطر قبلاً الى سبعة اشطر لم يبقَ منها الاَّ الاثنان المذكوران لان الترع نابت مناب البقية . والشطران الباقيان يكتنفان ارضًا مثلثة الشكل شبيهة بالحرف اليوناني المعروف بالدلتا ومنهُ تسميتها بذلك النيل . واما تسميتها بوادي النيل فلأنها واقعة بين سلسلتي تلال علوّها بضع مئين من الاقدام احداهما في الشرق بناحية البحر الاحمر وأخرى في الغرب بناحية صحراء ليبية فاصلة بين الدلتا والصحراء . ويجري النيل في بلاد مصر مسافة ستمائة ميل قبل بلوغهِ الدلتا بين اراضٍ صالحة للزراعة لا يزيد معدل عرضها عن سبعة اميال ثم يدخل الدلتا . وعلى ذلك قُسمت بلاد مصر قديمًا الى قسمين مصر العليا وهي الاراضي الضيقة الطويلة الصالحة للزراعة على ضفتي النيل كما ذكر آنفًا وتنتهي عند بداية الدلتا . ومصر السفلى وهي الدلتا بما فيها . وكانت مدينة ثيبس عاصمة مصرَ العليا ومدينة ممفيس عاصمة مصر السفلى

في غالب الاحيان وكان يملك على كلٍّ منهما ملك مستقل عن الآخر في بعض الازمان ثم انضمتا معًا تحت حكم ملك واحد

ومما لا يغفل ذكرهُ في الكلام عن بلاد مصر جفاف هوائها الذي هو السرُّ في حفظ ما فيها من الآثار والبقايا والمباني سالمًا الى عهدنا هذا. فلا يخفى ان الماء اشهر التواعل الطبيعية في تحليل الاشياء ولقلة بخارهِ في هواء مصر لا يؤثر هناك تأثيرًا يذكر بالنسبة الى تأثيرهِ في البلاد التي تكثر فيها رطوبة الهواء. ولذلك تتوالى الايام والسنون على آثار مصر وتبقى على حالها كأن ناب الدهر قد كلَّ عن نخرها. فان انسى ما اعتراني من الدهشة حين دخلت دار التحف ببولاق ورأيت حولي ما رأيت من الادوات والامتعة باقية على ما كانت عليهِ منذ الوف من السنين كأنها صُنعت امس فقط. فهناك احدية النساء والاطفال لا تزال كما كانت بعد لبسها مدة من الزمان ونزعها والمناشف الكتانية لم يبلَ نسيجها ولم يزل رونقها ولا يستنكف اشد الناس ترفًا من استعمالها اليوم كما كانت تستعمل يوم صنعها. والحلى والثياب والاثاث ولاسيما النقوش والصور والكتابات لا تزال كأنها قد خرجت بالامس من تحت يد صانعها. وأذكر اني رأيت هناك تمثال الثور ابيس منحوتًا من حجر اسود صلب لامع وعلى عنقهِ طوق وهو سالم من كل خدش كامل في كل اجزائهِ. ورأيت ايضًا تمثالاً من الخشب المصري قد مرَّت عليهِ الوف من السنين ولم يبلَ خشبهُ. وهناك تمثال جميل لخفرا باني الهرم الثاني من اهرام الجيزة الكبيرة وتمثالان آخران يديعان احدهما للملك كاهوتب والآخر للملكة وقرت بجانبهِ. وهذان التمثالان على غاية الاتقان وقد اجاد في وصفهما عالم من اشهر علماء الآثار بقولهِ "وهذان التمثالان اقدم ما صنعهُ الانسان في الارض وبقي الى زماننا وهما جالسان الواحد بجانب الآخر وقد تلوَّنا بالوان لا يزال بهاؤها كما كان كأن ملونهما قد فرغ الساعة من تلوينهما والشعر في تمثال الملكة مرتب كما يرتب النساء شعورهنَّ اليوم في بلاد النوبة واعينهما الصناعية فيها الاحداق من المرو الابيض والاجفان من البرونز والقزحيات من حجر البلور والنواظر من النلز اللامع بحيث يشبه منظرها منظر عيون الاحياء العاقلين ولا يسع الناظر اليها عند رؤيتهِ تلاعب النور فيها واشراق سطحها حتى كأن ماء العين يسطع عنهُ الا الاقرار بأنهُ لم يتصل احدٌ من اهل زماننا الى اصطناع عيون زجاجية تحكي العيون الحقيقية الى هذه الدرجة او تبلغ ما بلغتهُ هذه الاعين من الاتقان اه

والسبب في حفظ جثث المصريين المحنطة المعروفة بالموميا الى ايامنا هذه هو جفاف هواء مصر وانتظام حال طقسها وصناعة التحنيط التي تزوَّد المصريون بها وباستنباطها. والذي يتأمل امر هذه الجثث تأخذهُ الحيرة ويذهلهُ العجب فان كل جثة تشخص لناظرها مَن كان عائشًا قبل زمانهِ

بالوف من السنين وزد على ذلك انها تبيّن له هيئته وملامح وجهه كما كان ساعة موته. فقد وجد الباحثون منذ سنتين جثث ملوك عاشوا وماتوا قبل خروج بني اسرائيل من مصر على يد النبي موسى بثمانية من السنين كجثة آمنحس الاول وسنوسرتس الاول وتحتمس الاول والثاني والثالث ورعمسيس الثاني المعروف باسم سيسوستريس وسنوسرتيم الثاني الذي يقال ان ملامح وجهه تدل على انه كان من اهل الهجو والتعبير كما كانت ملامح فولتير الفرنسوي. وكذلك جثتي الملكة مكورا وبنتها الطفلة بجانبها. وكان للمحنط عند المصريين ثلث طرق اتقنها ينفق فيها ما قيمته ٢٥٠ ليرة انكليزية وكانوا يلفون كل الجثث المحنطة لفّاً محكماً بالكتان ويضعون بين غضونها حلى وجواهر ونبذاً من كتاب الموتى ثم يدفنونها في المدافن الواقعة بجانب تلال ليبية على ضفة النيل الغربية حيث تغيب الشمس زعماً ان الارواح تستقرّ هناك بعد الموت في المكان الذي يسمونه أمنتي

هذا بعض ما يتعلق بهيئة البلاد وعمرانها واما تاريخ امتها القدماء فله مصادر شتّى اولها تاريخ هيرودوتس الرحّالة والمؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وثانيها تاريخ مانيثو وهو كاهن من علماء كهان المصريين عاش قبل المسيح بثلثين وخمسين سنة وألّف تاريخه من كتابات قديمة كانت محفوظة في هياكل المصريين. وثالثها تواريخ جماعة من المؤرخين الذين عاشوا حوالي زمان المسيح والشهير منهم ديودوروس وسترابو وفلوطرخس. ورابعها نقوش على الاحجار وكتابات على ورق البيروس كُتبت منذ ازمان طوال ووصلت الى زماننا على طرق متنوعة. الّا ان هذه المصادر كلها ناقصة في ذاتها وقد لا تخلو من المناقضة العظيمة حتى ان المؤرخين يعانون في تأليفهم المشقات الزائدة ليتخلصوا من صعوباتها فيعجزوا عنها ويضطرّوا الى الاقرار بعجزهم. ولذلك لا يعمل بتاريخ السنين المذكور في كتب مؤرخيهم الّا بعد الحذر واعمال النظر. غير انه ما عدا الذين يسلمون بتاريخ السنين المذكور في التوراة كما هو ظاهره الآن قد اجمع المؤرخون على ان مينا — وهو اول ملوك مصر الذين ذكروا في التاريخ — عاش قبل المسيح بنحو ٤٠٠٠ سنة اعني نحو الزمان الذي يؤرّخ منه خلق الخليقة الآن. فالفرق بين تاريخ العلماء في مصر وبين تاريخ التوراة على ما هو ظاهر عظيم جدًّا ولولا ضيق المقام لامعنّا النظر فيه ولكن حسبنا القول بأن الكل يقرّون ان التاريخين غير موكدين ولا يمكن ان يحكم بصحة احدهما حكمًا قاطعًا ما لم ترد معارفنا عنها بزيادة البحث والاكتشاف

ولم يكن عند المصريين القدماء حادث معيّن يؤرّخون منه فلذلك كانوا يؤرخون بزمان الدول التي تحكم عليهم وعدد السنين التي كان كل ملك او دولة يحكم فيها. اما قائمة ملوكهم

فنختلف فيها واما دولهم فلا خلاف في انها كانت اربعًا وثلاثين دولة تمتاز احداها عن الاخرى إمَّا بالعاصمة التي كانت تحكم فيها او بالشعب الذي تنتمي اليهِ

فاول ملك من ملوك الدولة الاولى مينا المار ذكرهُ وقد ثبت بعد البحث والتحرّي ان اسمهُ ووجودهُ حقيقيان خلافًا لمن ادعى ان كل ما قيل عنهُ خرافة . ثم خلفهُ ابنهُ اثوثيس الذي روي عنهُ انهُ ألَّف كتابًا في علم التشريح وذكر بعد اثوثيس ملوك اشهرهم سنوبرن الملقب بالملك الصالح والمظنون ان جثتهُ لا تزال مدفونة في اقدم هرَم وقد وجدوا بالقرب من هناك تمثالي الملك كاهوتب والملكة نوفرت (اي الجميلة او الصالحة) اللذين قد مرَّ وصفهما . ومن ملوك الدولة الرابعة الملك خوفو ويسميهِ هيرودوتس شيوبس والملك خفرا والملك منقارا وهؤلاء الثلاثة هم بانو الاهرام الثلثة الكبيرة في الجيزة بالقرب من القاهرة . والشائع ان هذه الاهرام اقدم واعجب ما ابقاهُ البشر على الارض على اكبرها . ٤٥٠ قدمًا وطول كل جانب من جوانب قاعدتهِ المربعة ٧٤٦ قدمًا . ولكبرهِ الهائل يخال للناظر اليهِ انهُ تلٌّ كبير نهض من الارض بقوات الطبيعة لا بناء من ابنية البشر فاني لما وقفت مقابلهُ ونظرت عظمتهُ وضخامتهُ لم اقدر ان اتصورهُ الَّا تلًّا كبيرًا مغطًّى بالصفّاح من كل جوانبهِ ولا ازال اتصورهُ كذلك حتى الآن مع اني دخلت كل سراديبهِ ورأيت بعيني حجارتهُ المحكمة القطع مرصوفة رصفًا محكم الوضع . وما ذلك الَّا لان ضخامتهُ وضخامة تقريباتهِ من المخلوقات الطبيعية وتبعدانهِ عن الاعمال البشرية

وقد نقل هيرودوتس عن كتابات مصرية قديمة فقدت في زماننا ان الهرَم الكبير استغرق بناؤهُ عشرين سنة من الزمان واشتغل مئة الف عامل يتناوبون عليهِ كل ثلثة اشهر وان ما أُنفق لهم من ثمن البصل والثوم والكرّاث يساوي ١٣٠ آلاف ليرة استرلينية . وجوانبهُ متجهة الى الجهات الاربع تمامًا والظاهر انهُ جُعل مدفنًا تحفظ فيهِ جثث الملوك العظام ويخلَّد بهِ ذكرهم لم يصل اليهِ احدٌ . وقد وجدوا في هيكل منقارا ناووسهُ الذي كانت جثتهُ فيهِ فاراد نقلهُ الى دار التحف بلندن ولكن غرقت بهِ السفينة في البحر فتفقد ولم يصل منهُ الَّا غطاؤهُ وعلى الغطاء كتابة شبيهة بما يكتب على ضريح الميت في ايامنا فهي اقدم ما كتب من هذا القبيل

والمرجح انهُ قبل زمان الدولة الرابعة صُنع ابو الهول وهو تمثال رأسهُ رأس انسان وبدنهُ بدن اسد رابض وقد غطت رمال الصحراء بدنهُ الآن فلم يبقَ ظاهرًا منهُ غير رأسهِ واما قبلًا فكان مكشوفًا من كل جوانبهِ وكان بين قوائمهِ طريق تؤدي الى هيكل مبني تجاه صدرهِ . والمظنون ان هذا التمثال صُنع على اسم هورس الملك المؤلَّه عندهم وهو ابن اوسيرس وأيسس . وكان لهُ على رأسهِ قبلًا اكليل ملكي مصر العليا والسفلى ووجههُ متجه الى الشرق وملامحهُ تدل

على انه شديد الانتظار والترقب ولعل ذلك اشارة الى انتظاره لظهور اوسيرس ابيه ثانية بعد ان قتله اخوه ست كما سيجيء معنا

ومن ملوك الدولة الخامسة الملك اسا وابنه فتاح هوتب كتب في شيخوخته كتابًا في الفضائل التي يجب على الانسان الاتصاف بها وفي احسن طريق يسلكها في هذه الحياة . وكتابه اقدم كتاب خطّه البشر وهو محفوظ في باريس ومقامه رفيع جدًّا لما تضمّن من دلائل الانسانية وسمو التعاليم الادبية فنيه خلاصة الوصية الخامسة من وصايا الله العشر مع الوعد المترتب عليها[1] وغيرها من الحِكَم الجليلة كقوله "اذا عظمتَ بعد ضعتك واغتنيتَ بعد فقرك فصرت اول اهل بلدك واشتهرت بغناك وصرت سيدًا عظيمًا فلا تفتخرنّ قلبك بمالك فالله سبب غناك ولا تحتقرنّ غيرك لكونه الآن كما كنتَ انت قبلاً بل عامله كما تعامل نظائرك" وقوله "كُنْ صبوح الوجه ما دمتَ حيًّا فهل عاد احد من تابوته بعد ما صار اليه"

وقد قصدت بالسير الذي ذكرته عن ملوك الدول الاولى الاشارة اليهم خصوصًا لانهم وُجدوا في زمان كان يُظَن انه سابق لزمان كل تاريخ كُتب على الارض . ولم اقصد بذلك الاستطراد الى من خلفهم من مشاهير دول المصريين وما عملوهُ من الاعمال العظيمة وخلفوهُ من الآثار الكثيرة لان مجرّد الاقتصار على ذكر اسماء اشهرهم والاختصار التام في تلخيص آثارهم واعمالهم من هياكل ومسلّات ومدافن وتماثيل وصور ونقوش وكتابات يستغرقان مجلّدًا ضخمًا ولا يكتفيان بمقالة ولا مقالات . ولهذا لا اتعرّض الاّ لقليل من الحوادث المشهورة في تاريخ المصريين القدماء . فاوّلاً زمان تغرّب العبرانيين في بلاد مصر نحو ٤٠٠ سنة كما ذكر في التوراة فهذا كان ابتدائهُ على ما يظن في زمان الدولة السابعة عشر وهي آخر دولة من دول الرعاة . ومما يذكر في هذا السياق ان قصّة يوسف مع امرأة فوطيفار قد وجدوا ملخصها في البيروس تحت عنوان قصّة الاخوين والكلام الذي ردّ به يوسف مراودة امرأة فوطيفار له عن نفسه مذكور في قصة الاخوين المشار اليها بالحرف الواحد تقريبًا فكلام يوسف على ما في التوراة هو هذا "فكيف اصنع هذا الشرّ العظيم واخطئ الى الله" والكلام في البيروس هو "لماذا تكلمني بهذا الشر العظيم"

ثم خروج بني اسرائيل من مصر فهذا يظن انه حدث في زمان الدولة التاسعة عشرة على ايام الملك منفتاح فقد ذكر عنهُ في الآثار القديمة انهُ داوم بناء مدينة پاراسُو وحكم على عملة اللبن ان يرسلوا لهُ عددًا معيّنًا كل يوم . وهذا يشبه ما ذكر عن فرعون الطاغية في التوراة . وقبل

(١) المنتطف * وهذا نصها . اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض التي يعطيك الرب الملك

خروج الاسرائيليين من مصر قام فيها ملك عظيم من ملوك الدولة التاسعة عشرة سنة ١٦٠٠ قبل المسيح اسمهُ ثتمس الثالث فابلغها الى اسمى ما بلغت اليهِ من الزهوة والعظمة والسطوة فانهُ حارب في عشرين سنة ثلث عشرة حربًا وقهر كل القبائل تمامًا حتى امتدت فتوحاتهُ الى بلاد اشور وفتح من الجملة مدينة بيروت ولا يزال اسمها مذكورًا على الآثار في قائمة المدن التي استظهر عليها منذ ٣٥٠٠ سنة واعمال هذا الملك ومآثره منقوشة على جانبين من جوانب المسلة التي نقلها الانكليز من مصر الى بلادهم. وقد نقشت على الجانبين الآخرين منها فعال رعمسيس الثاني المشهور في التاريخ باسم سيسوستريس وكان بطلاً عظيمًا ومحاربًا شهيرًا حذا حذو ثتمس الثالث فحارب كحروبهِ وفتح كفتوحاتهِ بجيش مؤلف على ما قيل من ٦٠٠ الف من المشاة و٢٤ الفًا من الفرسان و٢٧ الف مركبة و٤٠٠ بارجة. وقد نقش اخبارهُ وفعالهُ ايضًا على ثلثة صخور كبيرة لا تزال قائمة على طريق نهر الكلب بالقرب من بيروت منذ اكثر من ثلثة آلاف سنة. وقد تغنّى بها الشاعر بنتور في زمانهِ بقصيدة ترجمها كثيرون من علماء الافرنج وهي منقوشة على عدة من الآثار. ولما كان مُلك رعمسيس قبل زمان موسى النبي على ما يظن فقصيدة بنتور المذكور اقدم القصائد التي ابقاها الزمان من شعر البشر

واشهر ما حدث في مصر منذ زمان الدولة الحادية والعشرين حتى زمان الدولة الحادية والثلاثين (اعني منذ سنة ١١٠٠ الى سنة ٣٣٣ قبل المسيح وهي سنة فتح الاسكندر لمصر) هو غزو الملك شيشق لبلاد كنعان وتغلب الفرس على مصر. وبعد الاسكندر جاء البطالسة وآخرهم كليوبترا الشهيرة بجمالها وبعدها وقعت مصر في يد الرومانيين سنة ٣٢ قبل المسيح حتى تغلّب المسلمون عليها في القرن السابع بعد المسيح. وهذه الحوادث قديمة بالنسبة الينا حديثة بالنسبة الى المصريين القدماء الذين عليهم مدار كلامنا فلذلك نعرض عنها ونعود الى الكلام عن كتاباتهم ونقوشهم ومبانيهم وكهانتهم وديانتهم وغير ذلك في المقالة التالية ان شاء الله

قميص النجاة

اخترع بعضهم ثوبًا للنجاة من الغرق وهو مؤلف من طبقتين من الكتان المصنوع بحيث لا ينفذ الهواء المحصور بينهما ويظهر انهُ مفيد للمرغوب لانهُ جُرّب فكان المتوشح بهِ كالخشب او القلين طافيًا على سطح الماء